وجوه نورانية معاصرة :المطران أنطوان بلوم، الجزء الثاني

المتروبوليت سابا (اسبر)

تعلّم المطران أنطوني أيّام كان راهباً ويمارس الطبّ أموراً جديرة بالذّكر زرعت فيه تعمقاً في الصّلاة وحسّاً مرهفاً تجاه أصغر الأمور وأدّقها. في هذا السياق يروي حادثة وقعت معه أيّام الحرب العالمية الثّانية فيقول:

> "وصل إلى المستشفى الذي كنت أعمل فيه طبيباً جرّاحاً جنديٌ ألمانيّ اخترقت رصاصة إحدى أصابعه فحطّمتها. نظر رئيس الجرّاحين خلال جولته على المصابين إلى الإصبع وأمر ببترها. قرار سريع سهل لا يتطلّب تنفيذه أكثر من خمس دقائق.
>
> "إذ ذاك قال الجندي: 'هل من أحد يتكلّم الألمانيّة؟' فأجبته عن سؤاله بلغته، فأخبرني عندئذ أنّه ساعاتي، وأنّه لو بُترت أصبعه فلن يستطيع العودة إلى مزاولة مهنته أبداً. هذا الحدث كشف لي أنّه لكونه ساعاتيّاً أهميّة لا تُضاهي كلّ الاعتبارات الأخرى. تعلّمت إذاً كيف أُعطي الأولويّة للمسائل الإنسانيّة، عند ذلك يمكننا حقّاً أن نصلّي من موقع نكون فيه إلى جانب الحقيقة صلاة ثابتة تمكّننا من الوقوف في حضرة الله وجهاً لوجه، وتسمح لنا بأن نكون بكلّ بساطة معه."

أُرسل إلى بريطانيا كاهناً، وهناك تعلّم الإنكليزيّة. وفي العام ١٩٥٠ عُيّن مساعداً للرعيّة البطريركية الروسيّة في لندن، ومن ثمّ رُسم أُسقفاً على أبرشية سوروج، وصار سنة ١٩٦٢ رئيس أساقفة للكنيسة الأرثوذكسية الرّوسيّة في بريطانيا وإيرلندا، وفيما بعد رُفِّع إلى رتبة ميتروبوليت. كرّس نفسه كليّاً للاحتياجات الرّعائيّة المتزايدة في أبرشيّته، بخاصّة لإقبال المؤمنين المطرّد على طلب مشورته ونصائحه فيما يخصّهم روحيّاً، بسبب اشتهاره بموهبة الإرشاد والاستماع إلى الاعترافات وحياة الصلاة.

طلبت إحدى دور النشر البريطانية المرموقة منه كتابة سيرة حياته، فرفض وعلّل رفضه هكذا:

"لا أستطيع أن اكتب سيرة ذاتية: كل حياتي وعملي مشبوكين بحياة الناس ومشاكلهم، أن أكتب عن نفسي من دونهم لأمر مستحيل، لكن أن أتكلم عن الآخرين الذين ائتمنوني على حياتهم، فأمر غير مسموح به؛ إذا كان يجب أن أكتب عن نفسي من دونهم فلن يبقى شئ لأكتب عنه؛ سيكون صَدَفَةً، أو صنجاً بلا صوت!"

عُرف بدقة لاهوته واتساع فكره. شيّد كل شئ في الأبرشية على أسس اللاهوت. ظلت اللجنة التي عيّنها لكتابة دستور الأبرشية تعمل عشرين سنة حتى جاءت مواد الدستور متطابقة مع اللاهوت الكنسي.

كان أول من استقبل مهتدين إلى الأرثوذكسية بوعي وتمييز . قال في هذا الصدد:

"رسالتنا كما أفهمها وزملائي هي: نحن هنا الآن صوت الكنيسة الأرثوذكسية بحسب التقليد الروسي، لسنا ملزمين بهداية الناس إلى الأرثوذكسية، لكن يجب أن نغرس فهمنا ومحبتنا للأرثوذكسية فيهم."

تميز بأحاديثه الروحية انطلاقاً من كلام الإنجيل، حتى قيل فيه:

"يتكلم الميتروبوليت أنطوني الروسية والإنكليزية والفرنسية والألمانية بصوت رخيم وهادئ، لكنه غالباً ما يوصل رسالة الإنجيل ببلاغة وإقناع بواسطة حضوره ومثال حياته بالأكثر. يشد انتباه كل الذين يلتقيهم ويتوجه بكلامه إليهم. وجهه، وخاصة، عيناه، يعكس التزاماً روحياً عميقاً يتخطى حواجز اللغة وينجح في التواصل حيثما يفشل الآخرون أو ينجحون جزئياً."

في تعليق له حول تسكين الرب للعاصفة، يقول (مرقس ٤:٣٥-٤١): "الله يساعدنا عندما لا يوجد لنا مساعد آخر. الله هناك في نقطة التوتر الأقصى. في نقطة الانهيار، في قلب العاصفة."

فهم الحضور في الأوساط المسكونية شهادة لإيماننا، وقد أدى شهادته بقوة وجرأة في قلب الأوساط المسيحية غير الأرثوذكسية. واعتبر هذه الشهادة رسالة أرثوذكسية أصيلة. كتب:

"العمل المسكوني ليس خيانة للكنيسة ولا ينطوي بالضرورة على أية مساومة... نحتاج أن نكون بين أتباع المذاهب الأخرى، حتى يلتقون بالأرثوذكسية وبجذور إيمانهم، وكي نستمع نحن بدقة إلى اللوم والاتهامات الموجهة إلينا."

وعلّم باقتناع تام أن المسيحيين لا يمكنهم أن "يبنوا" الوحدة بل أن "ينموا" بها، وذلك بإخلاصهم التام والمتزايد للإنجيل.

في توضيح له حول نجاح بشارته واتهامه تلميحاً بالعصرنة والخروج عن التقليد، قال:

"التقليد هو ذاكرة الكنيسة الحية الفاعلة بطريقة خلاقة من جيل إلى آخر. أما التقليدانية فهي عادة محتضرة لشئ تم في الماضي... كما تعلمون، أنا لست من أنصار تحديث الكنيسة، لكن الكنيسة مضطرة إلى أن تنظر في حاجات العالم المعاصر ومشاكله، وتستجيب لها بلغة يفهمها الذين يطرحون الأسئلة، كما فعل آباء الكنيسة بالضبط – لقد سعوا إلى امتلاك "ذهن المسيح" وعرفوا واقعية وعدالة مطالب الطرق الجديدة في التفكير. هذا يطبق على كل نواحي الحياة، وبخاصة على اللغة التي نخبر الحقيقة بواسطتها. غالباً ما تلقى العظات بلغة جافة ولاهوت مدرسي فلا تترك أثرا عند المستمعين."

حصل المطران أنطوني على عدة شهادات دكتوراه شرف من عدد من الجامعات البريطانية والروسيّة والأوكرانيّة. وطُبعت كتبه الأولى عن الصّلاة والحياة الروحيّة (مدرسة الصلاة، تشجع لتصلي، البدء بالصلاة، الصّلاة الحيّة، جوهر الصلاة، الله والإنسان، رحلة روحية، لقاء، اقتراب أكثر من المسيح، جسد المسيح الحيّ، في النور المشع في الظلام، الله والإنسان) في بريطانيا ومن ثم ترجمت إلى عدّة لغات وانتشرت انتشاراً واسعاً.

انتقل المطران أنطوني بلوم إلى الحياة الأبديّة بسلام في الرّابع من شهر آب من العام ٢٠٠٣ عن عمر٨٩ عاماً. قيل فيه:

"فيما كنتَ، دوماً، مخلصاً وسفيراً لتقليدك الأرثوذكسي، وما من شك مطلقاً في ذلك؛ استقبلك جميع المسيحيين الآخرين وقدموا لك كل أنواع الاحترام، باعتبارك صوتاً قوياً وعميقاً للإنجيل المسيحي هنا]بريطانيا[، ولك تأثير عظيم وجيد يتجاوز الجماعة الروسية." – ريتشارد تشارتليس، مطران لندن الأنغليكاني

"يجذب الفرح قلوب الناس ونفوسهم. لقد عرفوا فيك الراعي الروحي والشخص الذي يمتلك كمال النزاهة." – البطريرك الروسي ألكسي الثاني

"كان شخصية فاتنة بقوة. كان كل ما نصبو إليه جميعنا: توليفةً من روحانية وذكاء ومعرفة وإيمان راسخ أساسي وغيرة للأرثوذكسية بالإضافة إلى وسع ذهن." – إيغومان إيوان رئيس جامعة القديس يوحنا اللاهوتي الروسية الأرثوذكسية